تمام ما جرى سنة ثمانٍ وخمسين وست مئة

من ذلك كسرةُ التَّاتار.

خرج أهل مصر بعساكرهم مع من انضوى إليهم من العرب وغيرهم لقَصْد التَّاتار الذين بالشَّام، ومَلِكُهم يومئذٍ الملكُ المُظَفَّر قُطُز بن عبد الله التُّرْكي، مملوكُ التركماني الذي كان ملك مصر قبله، فاجتمع معه خَلْقٌ عظيم، ولما كان ليلة السَّابع والعشرين من شهر رمضان جاءنا بدمشق الخبر بأن عسكر المسلمين وَقَعَ على عسكر التَّاتار يوم الجُمُعة الخامس والعشرين من شهر رمضان عند عين الجالوت وما قاربها من البلاد، فهزموهم وقتلوهم وأخذوهم، ومعهم مَلِكُهم كَتْبُغا، فَقُتِلَ، وأُخذ رأسه، وأُسر ابنه، فانهزم تلك الليلة مَنْ كان بدمشق من

= أشهر، وكان يحفظ أكثر «مسند أحمد».

وقال الحافظ عز الدين الحسيني: هو أحد المشايخ المشهورين، الجامعين بين العلم والدين.

وقال ابن رجب في «الطبقات»: هو الشيخ الفقيه المحدث الحافظ الزاهد العارف الرباني، أحد الأعلام وشيوخ الإسلام.

وكان الشيخ عبد الله اليونيني ـ الذي يقال له أسد الشام ـ يثني على الشيخ محمد هذا، ويقدمه، ويقتدي به في الفتاوى، وكذلك شيخه الحافظ عبد الغني يثني عليه، وكذلك غيرهما من العلماء المقتدى بهم، ولم نعلم أحداً من العلماء ذكر غير ذلك، فيأتي هذا المصنف ويترجمه بهذه الترجمة التي لا تقال لأدنى الناس، ولما رأيت هذا الكلام حصل في النفس شيء حتى اطلعت على كلام الحافظ ابن رجب في «طبقاته»، فقال: إنه وقع بين الشيخ وبين أبي شامة منازعة في الكلام في حديث الإسراء، وصنف كل واحد منهما في ذلك شيئاً، وهذا لا يوجب هضم مثل هذا الرجل الجليل القدر، وَهَبْ أنه أخطأ كما زعم المصنف، ومن ذا الذي لم يخطئ؟ ومع أن هذه دعوى منه، فلا تقبل إلا بالنظر في التصنيفين، ثم وجدت في بعض التواريخ ذكر ترجمة المصنف، فقال: له مصنفات كثيرة بديعة مشهورة، لكنه كان كثير الغض من العلماء والصلحاء، فقدح الناس فيه، وكان عظيماً عند نفسه فسقط بذلك من أعين الناس. انتهى.

والله يغفر لنا وله ولجميع المسلمين، وينبغي أن من يعمل تاريخاً للناس، ويتقي الله فيما يقول، ويعطي لكل أحد حقه، ولا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يتعصب لنفسه ولا لمذهبه، والله أعلم.

قال إبراهيم عفا الله عنه: في دراستي عن أبي شامة بيَّنْتُ هذه القضية وغيرها من القضايا في حياته بياناً وافياً، أرجو أن يُيَسَّر طبعها ونشرها عن قريب، إنْ شاء الله تعالى.

التَّاتار؛ إيل سبان نائب الملك وأتباعه، وتَبِعَهم النَّاسُ وأهلُ الضِّياع ينهبونهم، ويقتلون من ظفروا به منهم، ولله الحمدُ والشكر.

وممن قُتِلَ بعد المعركة الملكُ السَّعيد بنُ العزيز بن العادل[١]؛ صاحب الصُّبَيْبة وبانياس، بقي محبوساً بقلاع الشَّام ـ بعد موت الصَّالح أيوب وابنه تورانشاه، وكَسْرة الفرنج بالدِّيار المِصْرية ـ سنين كثيرة، آخرها بقلعة البيرة على الفرات، فلما وصل التَّاتار إليها أخرجوه، وصار معهم، ثم قَدِمَ مع مقدَّمهم كَتْبُغا دمشق، وحَضَرَ فَتْحَ قَلْعتها، وتسلَّم بلاده، فلما قَدِمَ العسكرُ المِصْري في هذه الكَرَّة قاتل مع التَّاتار، فلما وقعتِ الكَسْرة عليهم جاء إلى الملك المُظَفَّر قُطُز، فلم يقبله، وقال: لولا الكسرة ما جئتَ. فأمر به، فقُتِلَ.

٢٠٨ وجاءنا كتاب قُطُز من طبرية تاريخ الأحد سابع وعشرين رمضان، وهو أول كتاب وَرَدَ منه إلى أهل دمشق يخبرهم بهذه الكسرة الميمونة، وبوصوله إليهم بعدها.

وفي التاسع والعشرين من رمضان قُتِلَ بالجامع الفخر محمد بن يوسف الكنجي[٢]، وكان من أهل العِلْم بالفِقْه والحديث، لكنه كان فيه كثرةُ كلامٍ وميل إلى مذهب الرافضة، جَمَعَ لهم كُتُباً توافق أغراضهم، وتقرَّب بها إلى الرؤساء منهم في الدَّولتين الإسلامية والتَّاتارية. ثم وافق الشمس القُمِّي فيما فوَّضه إليه من تخليص أموال الغائبين وغيرهم، فانتدب له من تأذَّى منه، وألَّب عليه بعد صلاة الصبح، فَقُتِلَ وبُقرَ بطنه، كما قُتِلَ أشباهُه من أعوان الظَّلمة مثل الشمس بن الماسكيني، وابن النغيل الذي كان يُسَخِّر الدَّواب.

ومن العجائب أنَّ التَّاتار كُسِروا وأُهلكوا بأبناء جنسهم من التُّرْك، وقلتُ في ذلك:

---

(١) هو الحسن بن عثمان بن العادل، له ترجمة في ذيل مرآة الزمان: ٢/ ١٦ ـ ١٧، العبر للذهبي: ٥/ ٢٤٥، عيون التواريخ: ٢٠/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦، الوافي بالوفيات: ١٢/ ١٠٠ ـ ١٠١، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦٥٨ هـ)، السلوك للمقريزي: ج١/ ق٢/ ٤٤١، شفاء القلوب: ٣٦٠ ـ ٣٦١، النجوم الزاهرة: ٧/ ٩٢، ترويح القلوب: ٥٧.

(٢) له ترجمة في ذيل مرآة الزمان: ١/ ٣٩٢، طبقات علماء الحديث: ٤/ ٢٢٦، تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٤٤١، الوافي بالوفيات: ٥/ ٢٥٤.

غَلَبَ التَّتار على البلادِ فجاءهُمْ مِنْ مِصْرَ تُرْكيٌّ يجودُ بِنَفْسِهِ
بالشَّامِ أهْلَكَهُمْ وبَدَّدَ شَمْلَهُمْ ولكلِّ شيءٍ آفةٌ من جِنْسِهِ

وجاءنا الخبر بوفاة الأمير حسام الدِّين بن أبي علي[1] بالدِّيار المِصْرية في أواخر شعبان من هذه السنة.

وقد كان النَّصارى بدمشق قد شَمَخُوا بسبب دولة التَّاتار، وتَرَدُّدِ إيل سبان وغيره من كبارهم إلى كنائسهم، وذهب بعضُهم إلى الملك هولاوو، وجاء من عنده بفرمان لهم اعتناء بهم وتوصية في حقِّهم، ودخلوا به البلد من باب توما، وصُلْبانهم مرتفعة، وهم ينادون حولها بارتفاع دينهم واتضاع دين الإسلام، ويرشُّون الخمور على النَّاس وبأبواب المساجد[2]، وعبروا به من باب توما قاصِدين دَرْبَ الحجر، ووقفوا عند رباط الشيخ أبي البيان، ونادوا بشعارهم، ورشُّوا الخمور على باب الرباط، وفعلوا مثل ذلك على باب مسجد الحجر الصَّغير والمسجد الكبير، وألزموا النَّاس من دكاكينهم بالقيام للصَّليب، ومَنْ لم يفعل ذلك أخرقوا به، وأهانوه وأقاموه غَصْباً، وشقوا به السوق إلى عند القنطرة آخر سويقة كنيسة مريم، فقام بعضُهم على الدُّكان الوسْطى من الصَّفِّ الغَرْبي بين القناطر، وخَطَبَ، وفضَّل دين النصارى، ووضَعَ دينَ الإسلام، ثم عطفوا من خلف السُّوق إلى الكنيسة التي أخربها الله تعالى بعد ذلك، وكان ذلك في ثاني وعشرين رمضان، وفي الغد صَعِدَ المسلمون مع قُضَاتهم وشُهودهم إلى إيل سبان بالقلعة، فأهانوهم، ورفعوا قسيس النصارى عليهم، وأخرجوهم من القلعة بالضَّرْبِ والإهانة، وفي غد حَضَرَ إيل سبان في الكنيسة، وفي غدٍ كانت الكسرة[2]، فركب المسلمين من ذلك همٌّ عظيم،

(١) له ترجمة في مفرج الكروب: ٥/ ٣٤٩، وذيل مرآة الزمان: ١/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥، ٢/ ٧٧ ـ ٨٧، العبر للذهبي: ٥/ ٢٥١، الوافي بالوفيات: ٢٢/ ١٠٢، تحفة ذوي الألباب: ٢/ ١٥١، نزهة الأنام: ٢٧١ ـ ٢٧٢، السلوك للمقريزي: ج١/ق٢/ ٣٣٠، النجوم الزاهرة: ٧/ ٩٣، شذرات الذهب: ٥/ ٢٩٦.

(٢ ـ ٢) ما بينهما ليس في (ب)، وفي (ك) و(ع) و(س) تقديم وتأخير، والمثبت من الأصل.

فلما هرب التاتار من دمشق ليلة الأحد السابع والعشرين من رمضان أصبح الناس إلى دور النصارى ينهبونها، ويخربون ما استطاعوا منها، وأخربوا من كنيسة اليعاقبة، وأخربوا كنيسة مريم حتى بقيت كُوَماً، والحيطان حولها تعمل النَّار في أخشابها، وقُتِلَ منهم جماعة، واختفى الباقون، وجرى عليهم أمرٌ عظيم اشتفى به بعضَ الاشتفاء صدورُ المسلمين، وهمُّوا بنهب اليهود، فَنُهِبَ قليلٌ منهم، ثم كفُّوا عنهم لأنهم لم يَصْدرُ منهم ما صَدَرَ من النَّصارى.

وفي يوم الجمعة ثاني شوَّال خَطَبَ بجامع دمشق الأصيل السِّعِرْدي، الذي كان خطيباً به في أول دولة نجم الدِّين أيوب، ثم عُزِلَ بالشيخ عز الدِّين بن عبد السَّلام، ثم خَطَبَ عمادُ الدين بن خطيب بيت الأبار، ثم خَطَبَ القاضي عماد الدين بن الحَرَسْتاني نحو ثلاث عشرة سنة، ثم عُزِلَ بهذا الأصيل.

٢٠٩ وكان له صوتٌ حَسَنٌ في الخطابة والقراءة، فبقي متولياً للخطابة والإمامة بجامع دمشق إلى سَلْخ شوال مُدَّة شهر واحد، ثم سافر مع السُّلْطان الملك المظفر إلى مِصْر، وأعيد منصب الخطابة والإمامة إلى القاضي عماد الدين بن الحرستاني الذي كان به قبله.

وجاءنا الخبر بأن المنهزمين من رجال التاتار ونسائهم لحقهم الطُّلْب من المسلمين بأرض حِمْص ونحوها، فسيَّبوا ما كان بأيديهم من أسرى المسلمين، وتبعَّجَتْ خيولهم، فتخفَّفوا مما معهم، حتى إنهم رموا أولادهم، وضربوا رقاب من عَجَزوا عن حَمْله من نسائهم، وعرَّجوا نحو طريق السَّاحل، وتخطَّفَ منهم خلق، وقُتِلَ نامس، وأُسر جمعٌ، والطُّلْبُ خَلْفَهم ليستأصلوهم، إنْ شاء الله تعالى.

وجاءنا الخبر في سادس شوال بموت العماد أبي حامد الحسين بن عماد الدين علي[1] بن الحافظ بهاء الدين القاسم بن الحافظ الكبير أبي القاسم

(١) له ترجمة في ذيل مرآة الزمان: ٢/ ١٧ ـ ١٨، عيون التواريخ: ٢٠/ ٢٣٦، ونزهة الأنام: ٢٧١.

علي بن الحسن المعروف بالحافظ ابن عساكر، وكان قد خرج من دمشق إلى مِصْر أيام الجَفْلة من التَّاتار، ثم لما بلغه استقامةُ الشَّام وأمنه خَرَجَ مع غيره من مِصْر على طريق الشَّوْبك والكَرَك، فمَرِضَ، وتوصَّل إلى نحو زرع، فمات، رحمه الله.

وفي رابع عشر رمضان جرى على كاتب هذه الأحرف[1] من نائب ملك التاتار بدمشق، واسمه إيل سبان ـ لعنه الله وإياهم ـ إهانة وتهديد بضَرْب الرقبة على أن وضع خطه لهم بمبلغٍ كبير من المال ظُلْماً وقهراً، فلم يمض بعد ذلك اليوم إلا عشرة أيام، فَكُسِرَ التَّاتار بأرض كنعان بعين الجالوت وما والاها كسرةً عظيمة مشهورة، كَسَرَهم الملكُ المُظَفَّر ملك مصر يومئذٍ كما تقدم[2]، وهَرَبَ إيل سبان ومن كان بدمشق منهم ليلة جاءهم الخبر، وعَجِبَ النَّاسُ من سرعة هذا الفَرَج، وقيل في ذلك:

تَفَرَّقَ جَمْعُ الكُفْرِ لمَّا تَعَرَّضُوا ... أبا شامةٍ ظُلْماً وكُدِّرَ وِرْدُهُ
أرادوا بهِ كيداً وما هِيْبَ عِلْمُهُ ... فغارَ له الرَّحمنُ إذ هو عَبْدُهُ
فما كانَ بين الجَوْرِ منهمْ وكَسْرِهِمْ ... لدى رمضانٍ غيرَ عَشْرِ نَعُدُّهُ
فحاشا لمفتي الشَّامِ يُهْمَلُ أمْرُهُ ... ويُخفضُ ذو عِلْمٍ ويُرْفَعُ ضِدُّهُ
له أسوةٌ بالأنبياءِ وصالحي الـ ... ـبريَّةِ فيهِ ليسَ يُخْلَفُ وَعْدُهُ
يَعِزُّ علينا ما جرى غيرَ أننا ... نُسَرُّ بهِ حيًّا فلا كانَ فَقْدُهُ

كاتب هذه الأحرف عُرِفَ بأبي شامة؛ بسبب أنه كان بوجهه منذ ولد شامة كبيرة بجبينه فوق حاجبه الأيسر، واسمه عبد الرحمن، وإلى هذا الاسم أشار بقوله: فغار له الرحمن إذ هو عبده، والحمد لله على نصره عليهم، وهو المستعان.

---

(١) في (ك) و(ع) زيادة: وهو المصنف لهذا الكتاب أبي شامة.

(٢) انظر ص ١٤٩ من هذا الجزء.

وفي شهر رمضان توفي أيضاً الحاج سَلِيم الفقيه، كان بالمدرسة الشَّامية ـ رحمه الله ـ واسمه سَلِيم، بفتح السين وكسر اللام.

وفي ثاني ذي القعدة توفي إمام المدرسة الحُسامية جمال الدِّين النَّابُلُسي، أخو الزين خالد المحدِّث، ودُفِنَ بالجبل، رحمه الله.

وفي ثاني عشر ذي القَعْدة توفي المحب علي بن حديد بن عبيد، السبنسي المِصْري الفقيه المقرئ، وكان من سُكَّان المدرسة الأمينية، وهو من أصحاب الشيخ أبي عمرو بن الحاجب ـ رحمه الله ـ وممن خدمه كثيراً من حين جاء معه من مصر سنة سبع عشرة وست مئة إلى أن توفي، وكان رجلاً حسناً، متواضعاً حيياً، مشتغلاً بنفسه، صالحاً، دَيِّناً، ودفن بمقابر باب الصغير، رحمه الله.

وفي الحادي والعشرين منه قرئ منشور نجم الدِّين ابن سني الدولة بولاية القضاء بدمشق.

وفي الثَّامن والعشرين من ذي القعدة توفي الجمال أبو الحرم مكي بن محمد بن المسلم بن أبي الحرم، رحمه الله.

٢١٠ وقبله[1] توفي من أهل حارة الخاطب أيضاً القطب ابن الليواني، وكان من مشايخ الفقراء، منقطعاً بمسجد الحارة ـ رحمه الله ـ وكان ظريفاً لطيفاً كريماً[1].

وجاءنا الخبر بوفاة الزكي اللُّبَّني[2] ببَعْلَبَك، وكان قاضياً بها، وكان ولي قبلها القضاء ببانياس، ثم ببُصْرى، رحمه الله.

ووصل الخبر أيضاً بأَنَّ الملك المُظَفَّر قُطُز ـ الذي ملك مِصْر والشَّام،

(١ ـ ١) ما بينهما ليس في (ب).

(٢) هو محمد بن عبد الواحد بن عبد الجليل، اللُّبَّني، نسبة إلى لُبَّن: من قرى القدس، له ترجمة في ذيل مرآة الزمان: ٢/ ٧٣ ـ ٧٥، وتوضيح المشتبه: ٧/ ٣٧٧.

وكَسَرَ التَّاتار ـ قُتِلَ في رجوعه من الشَّام إلى مِصر[١] قبل دخوله مصر بين الغُرَابي والصَّالحية، وكان مُدَّة ملكه منذ قَبَضَ على ابن أستاذه التركماني إلى أن قُتِلَ نحو من سنة واحدة، والله تعالى يولي على المسلمين من يهتم بنصرة الإسلام، وإقامة شريعة النبي عليه السلام.

وكان قُطُز هذا موصوفاً بمواظبة الصَّلوات والشجاعة، وتجنُّب شرب الخمر، رحمه الله.

واتفق أنَّ بين كَسْره لجيش التَّاتار وبين قَتْله قريبٌ مما كان بين قَتْلِ المعظم بن الصَّالح بن الكامل وكسرة الفرنج الذين كانوا بدمياط، على ما سبق ذكره في أخبار سنة ثمانٍ وأربعين[٢]، فبين هاتين الأعجوبتين المتشابهتين نحو من عشرة سنين إلا أن السَّابقة كانت في أوائل سنة ثمانٍ وأربعين، وهذه المتأخرة كانت في أواخر سنة ثمانٍ وخمسين، والله تعالى يحسن العاقبة.

وتولى السَّلْطنة بدمشق عقيب ذلك الأمير عَلَمُ الدِّين سنجر المعروف بالحلبي التركي، وكان قُطُز قد استنابه فيها، فلمَّا بلغه قَتْلُ قُطُز استحلفَ النَّاس، وتسلطن، وسكَنَ القلعة.

وفي رابع ذي الحِجَّة توفي الشيخ إبراهيم الفارقي أبو صالح، وكان شيخاً، كبيراً، صالحاً، ملازماً أكثر أوقاته المجاوَرة بالزَّاوية التي فيها الشباك الكمالي

---

(١) له ترجمة في ذيل مرآة الزمان: ١/ ٣٧٩ ـ ٣٨٤، ٢/ ٢٨ ـ ٣٦، سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ٢٠٠ ـ ٢٠١، العبر للذهبي: ٥/ ٢٤٧، فوات الوفيات: ٣/ ٢٠١ ـ ٢٠٣، عيون التواريخ: ٢٠/ ٢٤١ ـ ٢٤٣، الوافي بالوفيات: ٢٤/ ٢٥١ ـ ٢٥٣، تحفة ذوي الألباب: ٢/ ١٦٢ ـ ١٦٣، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦٥٨ هـ)، السلوك للمقريزي: ج١/ ق٢/ ٤١٧ ـ ٤٣٥، النجوم الزاهرة: ٧/ ٧٢ ـ ٨٩، حسن المحاضرة: ٢/ ٣٨ ـ ٣٩، شذرات الذهب: ٥/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

وللدكتور قاسم عبده قاسم كتاب «السلطان المظفر سيف الدين قطز»، طبع في دار القلم بدمشق سنة ١٩٩٨ م.

(٢) انظر ص ٩٥ من هذا الجزء.

بجامع دمشق، وهو الشُّبَّاك الذي اعتاد القُضَاة الصَّلاة فيه يوم الجمعة، وأصله من إسْعِرْد، وكان يُرعى جانبه من جهة السَّلاطين: الأشرف بن العادل وأخويه وبنيهم، ودفن بالجبل، رحمه الله.

وفي سادس ذي الحِجَّة يوم الجمعة خُطِبَ بدمشق لمن تولى السَّلْطنة بالدِّيار المِصْرية بعد قُطُز، وهو بيبرس البَنْدقداري التركي الموصوف بالشجاعة والإقدام، ولقب بالملك الظَّاهر ركن الدين. وذُكِرَ بعده الذي تولى دمشق علم الدين سنجر الحلبي، ولقب بالملك المجاهد، وضُرِبَتِ الدَّراهم باسمهما.

وفي سابع عشر ذي الحِجَّة توفي العفيف بن رحمة، شيخٌ صالح، مجاور بالجامع، يخيط فيه ـ وهو والد الشَّرف بن رحمة المشتغل بسماع الحديث ـ ودفن بمقابر الصُّوفية العليا، صليتُ عليه إماماً خارج باب النَّصْر، وحضرتُ دفنه.

ولما رجعتُ مررتُ بدار الحديث الأشرفية، فرأيتُ ما هي عليه من الشَّعَث والخراب صورةً ومعنى بسبب قِلَّة الاشتغال بها، وخَرَاب وَقْفها، فتذكرتُ ما كانت عليه زمان كُنَّا بها في سني نيف وثلاثين وست مئة، وشيخها يومئذٍ شيخنا الفقيه الحافظ تقي الدِّين عثمان بن الصَّلاح، فقلتُ بديهاً مشيراً إليها:

لـيـسـت بـدار حـديـثٍ ولا بـمـغـنـى فـلاحِ
مـن بـعـدمـا مـات زنـطـا رٌ والـتُّـقـى ابـنُ الـصَّـلاحِ
هـذاك لـلـوَقْـفِ والـشَّـيْـ ـخُ لـلـعـلـومِ الـصِّـحـاحِ

زنطار هذا كان يعرف بالحاج زنطار، كان الملك الأشرف واقف دار الحديث قد اعتمد عليه في عمارة الدار، ووقفها والنَّظر في ذلك، وفي خدمة الأثر الشَّريف النَّبوي بها[1]، وكان رزقها في أيامه متوفّراً، واختلَّ ذلك بموته

(١) كان فيها نعل النبي ﷺ، انظر «الوافي بالوفيات»: ٧/ ١٧٦ ـ ١٧٧، و«المقفى» للمقريزي: ١/ ٥٢٦ ـ ٥٢٧.

كما اختلَّ الاشتغال بالعلم في الدار المذكورة بعد موت الشيخ ابن الصَّلاح ـ رحم الله الجميع ـ ونظير ذلك أن نجم الدِّين بن سَلَّام[1] كان هو ناظر التربة الصَّالحية، فكان الجماعة في أيامه دارَّةً أرزاقهم، فلما توفي قال فيه شيخنا علم الدين السخاوي ـ رحمه الله ـ وكان يتولى الإقراء بها يومئذٍ مخاطباً للجماعة المتعلِّقين بها:

والـلـهِ والـلـه لا أفـلَـحْـتُـمُ أبـداً مِنْ بعدِ ما قد هوى النَّجْمُ بنُ سَلَّامِ

وكان الأمر على ما ذُكِر، اختلَّ الوَقْفُ بعده، والله المستعان. ٢١١

وفي الرابع والعشرين من ذي الحِجَّة توفي المجاهد قايماز الإقبالي، أحد مُعْتَقي جمال الدولة إقبال صاحب المدرستين بدمشق، وكان هذا المجاهد رجلاً دِيِّناً خيِّراً ـ رحمه الله ـ ودفن بالجبل، صليتُ عليه إماماً بجامع بني أمية بدمشق، وشيَّعْتُه إلى مَقْبُرة باب الفراديس، ثم مُضي به إلى الجبل.

وفي هذا الشهر توفي الحاج علي الجمَّال المعروف بدويخ، وكان أحدَ المقومين في طريق الحاج.

وفي هذه السنة كَثُرَ تغيُّرُ الدُّوَل، ومتولِّي الحُكْم بالشَّام، فكان الشَّام في أول السنة إلى نصف صَفَر في مملكة النَّاصر يوسف بن محمد بن غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي.

ثم صار في مملكة التَّاتار إلى الخامس والعشرين من رمضان.

ثم صار في مملكة المظفَّر قُطُز صاحب الدِّيار المِصْرية إلى أن قُتِلَ في ذي القَعْدة.

ثم صار في سلطنة الملك الظَّاهر ركن الدين بِيْبَرس البَنْدَقداري، ويفعل الله ما يشاء.

---

(١) سلفت ترجمته ص ٧٥ من هذا الجزء.

وكان القضاء في أول السنة يتولاه الصَّدْر أحمد بن سني الدولة مستقلاً به من خمس عشرة سنة إلى أن ولَّى التَّاتار كمالَ الدين عمر بن بُنْدار التَّفْليسي، ثم ولوا محيي الدين بن الزكي، ثم ولَّى قُطُز نجمَ الدِّين بن الصَّدْر بن السني.

وابتُلي النَّاس في هذه السنة بغلاءٍ شديد عامّ في جميع الأشياء من المأكول والملبوس وغيرهما. بلغ رطل الخبز دِرْهمين، ورطل اللحم خمسة عشر درهماً، وأوقية القنبريس درهماً، وأوقية الجبن درهماً ونصف، والثوم أوقية بدرهم، والعنب رطل بدرهمين.

ومن أكبر أسبابه ما أحدَثه الفرنج من ضَرْب الدَّراهم المعروفة باليافية، وكانت كثيرة الغش، بلغني أنه كان في المئة منها نحو خمسة عشر درهماً فِضة والباقي نحاس، وكَثُرَتْ في البلد كثرة عظيمة، وتحدِّثَ في إبطالها مراراً، فبقي كل مَنْ عنده شيءٌ حريصاً على إخراجه خوفاً من بُطْلانها، فتراه يدأب في شراء أي شيء كان بها، فيتزايد في السِّلَع بسبب ذلك إلى أن بطلت في أواخر السنة، فعادت تباع كل أربعة منها بدرهم ناصري مغشوش أيضاً بنحو النصف.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وست مئة

أولها يوم الاثنين لأيامٍ خلون من كانون الأول.

ففي أول محرَّم جاءنا الخبر بجفلة أهل حلب وما والاها إلى دمشق بسبب تجمُّع التَّاتار الذين كانوا بحرَّان وغيرها من بلاد الجزيرة، وانضمَّ إليهم مَنِ انهزمَ من وقعةِ كَسْرتهم، وضعفوا بما كان عندهم من شِدَّة الغلاء بحرَّان، وكانت البلاد قد خربت، فاضطروا إلى الإغارة على بلاد حلب، فانجفل النَّاس منهم، ثم جاءنا الخبر في سابع محرَّم بأنهم كُسروا بأرض حمص كسرةً عظيمة، فَضُربت البشائر بذلك، وكانت الكسرة عند قبر خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ إلى قريب الرَّستن، وذلك يوم الجمعة خامس محرَّم، وقتل منهم نحو ألف رجل، ولم يقتل من المسلمين سوى واحد.